

انثروبولوجيا زيارة الاربعين، دراسة في البعد الاجتماعي والسلوكيات للفرد العراقي

م.م. اخلاص رضا مهدي

م.م. رند اياد كاظم

جامعة بابل - كلية الآداب

Anthropology of the Arbaeen Pilgrimage: A Study of Social Dimensions and Behaviors

Asst. Lec. Akhlaas Rida Mahdi

art.ekhlaas.redha@uobabylon.edu.iq

Asst. Lec. Rand Ayaad Kadhim

art.rand.eyaad@uobabylon.edu.iq

University of Babylon - College of Arts

المخلص:

تعد زيارة الاربعين من المناسبات الدينية المتميزة المرتبطة بالتدين الشعبي والتي تعج بإشارات عديدة حول مسألة الاعتقاد الديني والطقوس المرتبطة بها، حيث يتوجه الملايين من الزوار في كل عام إلى كربلاء المقدسة من بلدان العالم المختلفة لأجل اعلان الحب والولاء للإمام الحسين عليه السلام في اطار من التكامل الثقافي والاجتماعي لاستلهم الدروس والعبر ومن ثم الشعور بالعدالة الانسانية، وقد تعددت ابعادها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والانسانية وباتت عنوانا للتعاون وتكريس ثقافة التكامل الاجتماعي بما يمثله من قيمة انسانية عالية .

كما تسهم الزيارة في تنمية الشعور بالمسؤولية لدى الانسان والفرد ازاء العقل الجمعي وامور الجماعة مثل النظافة وسلامة البيئة والحفاظ على الممتلكات العامة وحتى الذوق العام من خلال الفاعليات الاجتماعية المتنوعة التي تتم في اطارها فضلا عن انها تكشف في مضمونها عن افكار مختلفة كالتسامح واللاعنف والتعايش السلمي المجتمعي ويكشف في مضمونه عن طبيعة البنية الذهنية للمجتمع والتفكير الجمعي السائد فيه .

ان المدقق في الاعتبارات السابقة التي تعد موجهة اساسيا لبحث ظاهرة زيارة الاربعين يجدها تأتي بحسبانها ظاهرة اجتماعية شاملة ويفرضها ما يسمى بانثروبولوجيا الدين، التي يشغل التدين الشعبي حيزاً مهماً فيها وطبيعي اننا لكي نغوص في اعماقها ان نتسلح بمنهج دراسة الحالة وهو ما تطرحه ضرورة الاهتمام بالفضاءات الثقافية والاجتماعية والدينية التي ساهمت في صنع المقدس وإعادة انتاج الدين في اطار الحياة اليومية والواقع المعاش .

انه وفق ذلك فقد حاولنا ان نقيم دراسة سوسيولوجية نجمع وفق المنهج الكيفي، فمن خلال ادوات الدراسة سنحاول الكشف عن بعض المفاهيم النابعة بوعي ولا وعي عن الفئات الاجتماعية المختلفة، فضلا عن تبيان طقوسهم وممارساتهم وابداعاتهم في محيط المقامات والاضرحة (ضريح الامام الحسين عليه السلام).

الكلمات المفتاحية: زيارة الأربعين، الدين الشعبي، الأبعاد الاجتماعية.

Abstract:

The visit of the Arbaeen is considered one of the distinguished religious occasions associated with popular religiosity, witnessing a significant turnout of millions of visitors who head to the holy city of Karbala from various countries worldwide to express love and loyalty to Imam Hussein, peace be upon him, within a framework of cultural and social integration to draw lessons and insights and then feel a sense of human justice. Its social, economic, educational, and humanitarian dimensions have multiplied, becoming a symbol of cooperation and the dedication to a culture of social integration representing high human values. Furthermore, the visit contributes to developing a sense of responsibility among individuals towards collective consciousness and communal matters such as cleanliness, environmental safety, preservation of public property, and even general etiquette through the various social activities conducted within it. Moreover, it reveals diverse ideas such as tolerance, non-violence, and peaceful social coexistence, unveiling the nature of societal mental structure and prevailing collective thinking within it.

The scrutineer of the aforementioned considerations, which constitute a fundamental guide for examining the phenomenon of the Arbaeen visit, finds it to be a comprehensive social phenomenon imposed by what is known as the anthropology of religion, wherein popular religiosity occupies a significant space. To delve into its depths, it is natural that we arm ourselves with a case study methodology, as necessitated by the importance of paying attention to the cultural, social, and religious spaces that have contributed to the making of the sacred and the reproduction of religion within the framework of daily life and lived reality.

Accordingly, we attempted to conduct a sociological study through a qualitative approach. Through the study tools, we aim to uncover some of the concepts arising from the awareness or unconsciousness of different social categories, as well as to elucidate their rituals, practices, and innovations within the environment of the shrines and mausoleums (the shrine of Imam Hussein, peace be upon him).

keywords: Arbaeen Visit - Popular Religion - Social Dimensions.

المقدمة:

تطرح الظاهرة الدينية نفسها بإلحاح شديد على مسرح الأحداث التي يشهدها المجتمع العراقي في الآونة الأخيرة وتقرض ذاتيتها على كل نشاط أو فعل أو تأمل ويتضح طغيان الظاهرة الدينية بجلاء في مجموعة الأفعال والممارسات الاجتماعية وعلى الرغم من ذلك نجد إنها تعد من أقل الموضوعات التي تحظى بالبحث والدراسة والتفسير الموضوعي، إن الوظائف التي يلعبها الدين في أي مجتمع من المجتمعات يجعل منه ظاهرة

ثقافية حيث يقدم مجموعة من القيم المرجعية التي تحدد سلوكيات ودوافع الفاعلين الاجتماعيين ناهيك عن تنظيم العلاقة النفعية بين الخالق والمخلوق .

وبحسب ذلك، يلعب الدين دوراً في قلب الحياة اليومية في المجتمعات الحديثة، فإذا كانت الحداثة قد تأصلت من أجل إبعاد الدين عن تسيير أمور المجتمع وأعمال العقل والقوانين العلمية وهو ما مثله الوضعية باتجاهاتها المختلفة، فإنه على صعيد الواقع المعاش لا يزال يشكل نبضاً لا ينقطع تأثيراته في المجتمع وهو ما جعله يتغلغل في كل أمور الحياة المعاشة ليدخل في سياق المجال العام ليفرض سيطرته على الفرد والمجتمع في آن واحد، بل اضحت الممارسات والمنظورات الدينية مورداً أساسياً للقيم التي يشهدها الواقع المعاش^١.

ويوضح لنا ذلك حضور الدين بشقيه الرسمي والشعبي في المجال العام العراقي بما يساهم في تعزيز التواصل الاجتماعي ويزيد من عمليات الابداع والحرية والمناقشات العامة دون الالتفات إلى الحواجز المصطنعة بين مكونات المجتمع الأساسية، وأنه يشكل حيزاً من المجتمع وتسوده اخلاقيات الحوار أو المناقشة والتسامح والحرية .

وفي ضوء هذا الإطار، تعد ظاهرة زيارة الاضرحة ومقامات الاولياء الصالحين بمثابة عادات ثقافية راسخة ومتأصلة في الذاكرة الشعبية لدى المجتمعات العربية والعراق بشكل خاص ؛ الذي عرف ظهور الاضرحة بعد الفتوحات الاسلامية والتي ترجع اصولها إلى ظهور طرق التدين الشيعية والصوفية في المجتمعات الاسلامية، فزيارة الاضرحة والاولياء والقيام بمختلف الطقوس التي تتبعها هي من مخزون الذاكرة الشعبية للمجتمع والمقصود بالذاكرة الشعبية في هذا المقام "ملكة ذهنية يحملها الناس عبر الاجيال لتخزين تراثهم المشترك واستحضاره عند الضرورة" . ولا جدال أن بقاء الاضرحة كمعلم قدسي واستمرارها إلى الآن دليل على قيام هذه المعالم بوظائف كفلت لها الاستمرارية في المجتمع^٢.

ولكننا سنركز في هذه الدراسة على التعامل المجتمعي مع ظاهرة زيارة الاربعين وما يتعلق بها من طقوس وتعتبر زيارة الاربعين هي ذكرى مرور اربعين يوماً على استشهاد الامام الحسين بن علي عليه السلام الذي ضحى بنفسه واهل بيته وانصاره في سبيل الدين، إذ يتوافد على مدينة كربلاء في العراق ملايين من الشيعة ومختلف المذاهب القادمين من مدن عراقية اخرى ومن خارج البلاد لاحياء ذكرى اربعينية الامام الحسين عليه السلام حيث اولى الائمة المعصومين زيارة قبر الامام الحسين عليه السلام عناية فائقة واهتمام خاص وحثو شيعتهم على أداء هذه الشعيرة المقدسة والتأكيد عليها وفي ذلك قال الامام الكاظم عليه السلام " من زار الحسين عارفا بحقه غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " وهذا ما يعكس لنا الالهية الروحية التي اكتسبتها زيارة الاربعين في الوسط الشيعي في المجتمع العراقي وخارجة^٣

كما يتضح لنا أن زيارة الاربعين تعكس تفاعلات اجتماعية وثقافية معقدة تستحق التحليل والدراسة العميقة . إذ يمكن لهذه الزيارة أن تكون نقطة انطلاق لفهم اعمق لديناميات المجتمع وتأثيرها على هويته الاجتماعية والثقافية وهو ما سنتطرق إليه في الدراسة الراهنة .
أولاً: اشكالية الدراسة :

شكلت الزيارة الاربعينية بعداً اجتماعياً تمثل في ثورة الامام الحسين عليه السلام واصبحت من شعائر الشيعة بكل جوانبها الحماسية فقد كانت الزيارة قديماً تقتصر على مجموعة من العلماء والوجهاء في النجف الاشرف ولقد تعرض اولئك للمنع وفي التسعينات اصبحت شبه معدومة حتى زوال نظام صدام حسين حيث اخذت منحى مهماً سواء داخل العراق أو خارجه؛ هذه المسيرة تتجدد في كل عام وتولد من جديد بكل ابعادها ولم تعد محصورة على مجموعة متدينة بل اصبحت كل الطبقات والاتجاهات تسير نحو كربلاء التي تمثل في جوهرها علاقة وطيدة بين اتباع الامام الحسين ف احياء هذه الذكرى الاربعينية احياء للنهضة الحسينية بكل مفرداتها وتجديد الذكرى استشهاد الامام الحسين عليه السلام ولآل البيت ^٤ .

ولعل من اهم التقاليد التي عنيت بها الشعوب في تلمس التواصل والتعارف هي الزيارة والجود بالوصل - في المواسم الدينية - يمنحها بعداً من القدسية، لتكون فرضاً يرتجى في ظلاله - الثواب، أو الشفاعة أو الخلاص، في جميع الديانات سواء كانت سماوية أو وضعية ؛ فالقصد إلى المعبد أو الكنيسة أو المسجد بلغ درجة من الشيوخ ، وظل يمثل واحداً من الانساق الثقافية في المجتمعات الدينية جسدت جملة من الحوادث الجسيمة في الاسلام التاريخي تفاعلاً اجتماعياً مستمراً ومتصاعداً عبر الزمن،

وجدير بالذكر، أن زيارة الاربعين قد مثلت اضخم زيارة في تاريخ العراق ، إذ تشير الاحصائيات إلى ازدياد اعداد المشاركين بها كل عام حتى وصلت إلى ١٣ مليون زائر و ٨٠٠ الف شخص، وإن عدد الموكب الحسينية المشاركة بلغ ١٠ الاف موكب داخل مدينة كربلاء المقدسة فقط، كما بلغ عدد المنتسبين في العتبة الحسينية المشاركين في خدمة زيارة الاربعين نحو ١٣ الف منتسب وفي العتبة العباسية بلغ ٦ الاف، اما عدد المتطوعين لدى العتبة الحسينية لتأمين الزيارة فقط بلغ ١٠ الاف متطوع بالإضافة إلى ٥٠ الف عنصر امني، ١٢ الف عنصر من منتسبي الفرق الصحية، وتحمل زيارة الاربعين بعداً عقائدياً لدى شيعة أهل البيت ^٥ .

وعلى ضوء هذه الخلفية اصبح لزيارة الاربعين دوراً مهماً في تحريك الجماهير نحو الاهداف السامية التي مثلها الامام الحسين عليه السلام وثار من اجلها وهي قيم الايمان والحرية والعدالة والانسانية وعلى هذا النهج اصبحت الزيارة بمثابة عملاً ثقافياً توجيهياً وتوعوياً لارشاد الناس واستثمار العواطف الجياشة لتعريفهم بكل تلك القيم ^٦ .

ولئن كانت الظاهرة الدينية لا تخضع بسهولة لمنطق التحليل السهل، فإن الاقتصار على سوسيولوجيا الدين وحدها في التحليل لظاهرة الاربعين كدقيق قوي ومعرفة واضحة بسير وعمل المجتمعات البشرية، بصرف النظر عن وجود هذه المجتمعات في الزمان أو المكان وكمعرفه تركز على مجتمعات معينة ذات الثقافة المحدودة والعتيقة احيانا والتي ينصهر فيها الدين بالعادات والاعراف والتقاليد تجعلنا اكثر المأما بتفاصيل النشأة وبالصور والتمثيلات التي تؤثر بشكل بارز على الممارسات الدينية الخالصة بكل فئة اجتماعية . كما تسمح لنا بالتمييز بين التدين كقيمة عاطفية وجوهرية وبين الدين كتعبير عملي ومؤسسي عن هذا التدين . يحيلنا هذا الاختيار في دراسة الدين والتدين الى الاستعمال المنهجي للسوسيولوجيا والانثروبولوجيا . بغية الوصول إلى ادراك اوسع واعمق للتفاعلات بينهما ومدى تأثير ذلك على الهوية الدينية بشكل خاص^٧ .

ولعل من اهم التقاليد التي عنيت بها الشعوب في تلمس التواصل والتعارف هي الزيارة والجود بالوصل - في المواسم الدينية - يمنحها بعداً من القدسية، لتكون فرضاً يرتجى في ظلاله - الثواب، أو الشفاعة أو الخلاص، في جميع الديانات سواء كانت سماوية أو وضعية ؛ فالقصد إلى المعبد أو الكنيسة أو المسجد بلغ درجة من الشيوخ ، وظل يمثل واحداً من الانساق الثقافية في المجتمعات الدينية جسدت جملة من الحوادث الجسيمة في الاسلام التاريخي تفاعلا اجتماعيا مستمرا ومتصاعداً عبر سنى التاريخ، وتشكلت منها ازمات وظواهر أو كادت، إذ بدأت باغتصاب الامامة لصالح الخلافة، ومقتل الائمة الذين طهرهم الله اصحاب الكساء، وبينهم من آل البيت، مما اتاحت لاستجابة مخالفة، اسست لنهضة اجتماعية للسلطة، ومعارضة حققت تفاعلاً، إنه حسب ذلك، سنتعرض لزيارة الاربعين وفق منطق انثروبولوجي باعتباره وسيلة ناجعة للكشف عن الابعاد الاجتماعية والسلوكية فقد كان ينظر الى تلك الطقوس وغيرها من العادات على انها ممارسات فارغة من المعنى ولم تعد ملائمة لهذا العصر الذي شهد تحولات كبيرة على مستوى التقدم العلمي والتكنولوجيا والاتجاه صوب المادية ولم يلق الضوء عليها الا في العصر الحالي باعتبارها تمثل وثيقة تاريخية مهمة على الاصعدة السياسية والدينية والنفسية والاجتماعية وبالنسبة للشيعة داخل العراق وخارجه ونشاطا اجتماعيا شمل رقعة جغرافية واسعة فهي طقس موغل في القدم يعكس ما ترسخ في الوعي الجمعي للشيعة من رمزية هذا الطقس واهميته لكونه موجها للسلوك الانساني وملهما روحيا لهم وللانسانية جمعاء لذا اقتضت الدراسة الافادة من معطيات هذا الحقل المعرفي وتطبيقه على زيارة الاربعين فيما يتعلق بالآثار الاجتماعية والسلوكية التي تتركها زيارة الاربعين على افراد المجتمع العراقي بالاضافة إلى المعاني الثقافية التي تتخفى خلف ممارسات معتققي هذه الزيارة دون وعي منهم .

إن فهم اشكال التفاعل الاجتماعي مع الواقع الديني في ضوء الحوادث هو ما يهدف له علم الاجتماع الديني وهو كما يوضح ووك : "دراسة العلاقات المتبادلة بين الدين والمجتمع واشكال التفاعل التي تحدث

بينهما"، وإن أي دين أو مذهب يظهر في البداية، كرفض أو ردة فعل، ضد ظاهرة معينة في المجتمع، ويتغير في النظرية والتطبيق، تبعاً للتغيرات في نموه الديني ونجاحاته وإخفاقاته وطبيعة الناس الذين يسودون فيه وما شابه من الأمور الأخرى، فهو جدير بالدراسة. وهو ما سنحاول توضيحه من خلال هذه الدراسة وعلى ضوء ذلك تنطلق الدراسة من تساؤل رئيسي مفاده ما الأبعاد الاجتماعية والسلوكية لزيارة الأربعين للفرد العراقي ؟

ثانياً: أهداف الدراسة : انطلقت الدراسة من هدف رئيس مؤداه الوقوف على الأبعاد الاجتماعية والسلوكية لزيارة الأربعين وتأثيرها على الفرد العراقي وتفرع من هذا الهدف عدة أهداف لعل أهمها ما يلي :

- ١- التعرف على مدلولات زيارة الأربعين من منظور انثروبولوجي
 - ٢- التعرف على الأبعاد الاجتماعية والسلوكية لزيارة الأربعين على الفرد العراقي .
 - ٣- التعرف على دور زيارة الأربعين في تعميق الشعور الجمعي .
- ثالثاً: تساؤلات الدراسة :**

انطلقت الدراسة الحالية من تساؤل رئيس مؤداه ما الأبعاد الاجتماعية والسلوكية لزيارة الأربعين على الفرد العراقي؟ وتفرع عنه مجموعة من التساؤلات لعل أهمها ما يلي :

- ١- ما مدلولات زيارة الأربعين الانثروبولوجية ؟
- ٢- ما الأبعاد الاجتماعية لزيارة الأربعين للفرد العراقي؟
- ٣- ما الأبعاد السلوكية لزيارة الأربعين وتأثيراتها للفرد العراقي؟
- ٤- ما الدور الذي تلعبه زيارة الأربعين في تعميق الشعور الجمعي ؟

رابعاً : مفاهيم الدراسة :

للمفاهيم تراكماتها وتاريخيتها وتقاطعاتها وحقول استخدامها تلك التي تتداخل وتتشابك مع بعضها البعض لكي تخدم قراءة دلالية للمشار إليه والكشف عن المعاني بصورة واضحة^٩ . ووفقاً للدراسة الراهنة فهناك مجموعة من المفاهيم تقتضيها طبيعة الدراسة الحالية لعل أهمها:

١- مفهوم الزيارة :

وفي التعريف اللغوي لمفهوم الزيارة نجد انها كلمة اصلها زيارة في صورة مفرد مؤنث وجذرها (زور) : مصدر زار يزور المكان أو الشخص : اتاه للأنس به أو لا يأنسه، زيارة : اتيان بقصد التبرك أو الحج وزور بمعنى ميل، زورت الشمس إلى الغروب بمعنى مالت وزور الشيء : اصلحه وقومه واتقنه^٩ .

وفي المعنى السوسولوجي نجد أن الزيارة تشير إلى زيارة الأربعين : هي زيارة مرقد الامام الحسين في يوم ٢٠ من صفر من التاريخ الهجري الاسلامي من كل عام أي بعد اربعين يوماً على ذكرى استشهاده وتأتي

خصوصية يوم الأربعين في كربلاء إلى ذكرى رجوع رأس الحسين من الشام إلى العراق و دفنه مع الجسد في كربلاء . ويسمى الشيعة العراقيين يوم الأربعين بيوم (مرد الرأس) .

ان التحاق الرأس بالجسد بعد اربعين يوماً من مقتل الحسين يكون في الحقيقة اساس موضوع هذه الذكرى الاليمة، فضلاً عن زيارة قبر الحسين والتبرك به، الذي اصبح من التقاليد الاسلامية العريقة التي لها اهمية كبيرة في العراق ويأتي يوم الأربعين بعد يوم عاشوراء في اهميته حيث تقام الاحتفالات بأربعينية الامام الحسين في كربلاء وتقوم اعداد كبيرة من الشيعة العراقيين وغير العراقيين بالمشي إلى مرقد الامام الحسين لغرض زيارته والتبرك به في رحلة تستغرق عدة ايام أو اسابيع تتخللها بعض الطقوس الخاصة بهذه المناسبة. وتعود بداية ممارسة طقوس الأربعين إلى واقعة تاريخية تقول بأن الامام على ابن السجاد عندما عاد إلى العراق مع قافلة السبايا توجه فوراً لزيارة قبر ابيه الحسين وكان وصوله إلى كربلاء يوم الأربعين من مقتل والده وعندما ذهب إلى هناك وجد الصحابي جابر الانصاري. وهذه الحادثة مؤشر تاريخي إلى بداية انطلاق زيارة الأربعين^{١٠}.

وتستخدمه الدراسة اجرائياً باعتبارها مناسبة دينية هامة في الاسلام يتوجه المسلمون الشيعة الى كربلاء لزيارة ضريح الامام الحسين وتحمل الزيارة ابعاداً اجتماعية وسلوكية مهمة تؤثر على سلوك الفرد العراقي .

مفهوم الابعاد الاجتماعية والسلوكية :

باعتبار أن مفهوم العامل أو السبب : يشير إلى حادثة عند وقوعها تؤدي إلى وقوع حادثة أخرى، أو هو متغير يمكن أن يؤدي إلى نتيجة معينة . فإن مفهوم البعد الاجتماعي، فيشار إليه بأنه مجموعة الظروف التي تكتسب معنى متميزاً من خلال العامل الرئيسي للمجتمع والذي تتأسس عليه معايير الجماعة^{١١} . لذا فمن خلاله تتحدد شكل وطبيعة طرائق المعيشة والتفاعل الاجتماعي .

وتستخدمه الدراسة اجرائياً : باعتباره الجوانب التي تؤثر على سلوك الفرد وتفاعلاته مع المجتمع والبيئة من حوله . تشمل هذه الابعاد عدة عناصر مثل القيم والمعتقدات والثقافة والتفاعلات الاجتماعية والسلوكيات والديناميات النفسية التي تؤثر على سلوك الفرد في المجتمع تحدد هذه الابعاد كيف يتصرف الافراد في مختلف المواقف الاجتماعية وكيف يتفاعلون مع بيئتهم ومجتمعهم .

قضايا نظرية

أولاً : التدين الشعبي و زيارة الأربعين "رؤية انثروبولوجية" :

تحظى دراسة الظاهرة الدينية بمكانة متعاظمة بين مختلف الفضاءات المعرفية نظراً لاتشاجها بروابط فكرية مع النظريات والفلسفات والتصورات الميثولوجية، ناهيك عن ارتباطها بدراسة المعتقدات والطقوس الدينية، إن خضوع الدين للدراسة والبحث فرضته طبيعة الظاهرة الدينية ومواقف الإنسان منها فضلاً عن ارتباطه بالجانب

المقدس الذي - يغلف بسياج من المحرمات، وبشكل عام شكلت الحياة الدينية في العراق ملمحاً مهماً انعكس بشكل قوى على كل مفردات الحياة الاجتماعية ذلك ما أشارت إليه كل الأدبيات والدراسات والبحوث السابقة^(١٢). إنه وفق ذلك، تمثل دراستنا للتدين الشعبي في هذا المقام أهمية خاصة في فهم ثقافات الشعوب وفلسفتها خاصة فيما يتعلق برؤى العالم وأنماط التفكير وأنساق المعنى وأشكال التعبير الرمزي والمجازي والدلالات الرمزية للواقع الاجتماعي والأبعاد الرمزية لعملية التغير الثقافي وهوية المجتمعات المحلية خاصة بعد أن زادت التحديات التي تواجهها والمتمثلة في ثقافة العولمة التي نشأت في احضان التكتلات الاقتصادية المادية والتي تسعى إلى الهيمنة وفرض ايديولوجيا رأسمالية واستهلاكية ذات نمط عالمي واحد^(١٣). ولكننا لا نستهدف من خلال هذه الدراسة معالجة الدين من المنظور اللاهوتي التخصصي بقدر ما تعالج تصورات الناس لموضوعات تتقاطع مع المعتقدات الدينية والتراث المحلي أو الشعبي المميز لهم خاصة ما يتعلق بالكون أو العالم ومكانهم فيه مثل زيارة الاربعين.

وفى هذا الصدد نجد إن بزوغ التدين الشعبي على الساحة الثقافية / الدينية وتقاطعه مع الدين المقدس ممثلاً في ظواهر عدة لعل أهمها زيارة الاربعين يجعلنا نستدعي ما طرحه "دوركايم" بالبدل الوظيفي للديانة التقليدية والتي استمدت من تجربتها الذاتية وسائل تعبيرية خاصة تراها تصوراً مثالياً لعقيديتها، إن مسألة الديانة التعويضية تتبدى هنا بوضوح نتيجة هزيمة هذه الجماعة أمام قوة المادية والتي من شأنها ساهمت في تحويل كثير من المعاني والقيم الدينية إلى مجهودات زهدية وسلوكيات طقوسية واندفاعات روحية، إن التدين الشعبي وفق ذلك يعمل على نشر إسلام بسيط بين العوام ومن ثم يساهم في نشر العقائد والقيم الرمزية الجديدة تلك التي تفتقت عن شطحات وخيالات الأولياء وما يساهم في تداخل البنيوي مع المقدس أو الأرضي مع المتعالي أو قل المقولات بالتصورات أو الخيالات^(١٤).

إن ذلك التنافذ المتبادل بين الدين والمعتقدات الشعبية هو ما يعين إطار الدين الشعبي ومادته ذلك أن هذه المعتقدات في تمثيلها لحدود ما فوق الطبيعي ولكن على جانب ما هو مقدس تقترب من تكوين اعتقادي كنظام لصيق بالدين، وربما لهذا يجوز النظر إلى الخوض في موضوع الدين الشعبي كمغامرة غير مأمونة العواقب بسبب من انفتاحه على مساحات ومناطق دفيئة تغطي في كثير من الأحيان قواعد التحريم وحدود الأعراف وتتأبى على الاستقصاء الظاهري أو الرصد الموصوف^(١٥).

إنه حسب ذلك، فالتدين الشعبي على طول الخط يأتي متبايناً عن الدين الرسمي، وهو ما نستدل عليه من خلال ادبياته وممارساته التي يختلط فيها ما هو موضوعي وما هو ذاتي وما يرتبط بالشعور الغريزي وما يأتي من الوعي الباطن والخط بين ما هو مقدس وما هو مدنس فالناظر إلى طبيعة هذا التدين يجد أن المكتبيين يذهبون إلى الحالة الأولية التي تستند إلى بنية عقلية غرائزية محددة، تتفاعل مع الذات التي تطل على نفسها من خلال

نافذة مفتوحة لا يحجبها عن غيرها ونفسها أي شيء؛ إذ تراقق الذات ذاتها وهي تمارس إبداعاتها اليومية، وهذا ما يجعلنا نشير إلى أن هذا التدين أو التفكير اليومي هو الذي يشكل الإبداعات الروتينية^(١٦).

وترتيباً على ما سبق الإشارة إليه من طبيعة التدين الشعبي فإننا في هذا المقام سنتطرق إلى دراسة أحد أهم صور التدين الشعبي وهي الشعائر والطقوس وهي تعد بمثابة سلوكيات فردية أو جماعية تنتقل عبر الأجيال وتستلزم مراعاة عدد من القواعد الثابتة والدقيقة التي ليس من السهولة تغييرها أو تحويلها، تترجمها رموز الجماعة القولية منها والحركية وتتحقق من خلالها غايات التواصل وتشبع حاجات رمزية أساسية، وبدون هذه القواعد الثابتة تفقد الشعائر والطقوس قيمتها وفعاليتها وخصائصها التراثية، وترتبط بالسلوك الطقسي جملة من الخصائص تميزه عن باقي الممارسات الجماعية أهمها انتظامه وفق تراتيب وضوابط لا يتم التبادل الرمزي إلا بها وإلا فقد التواصل مضمونه الرمزي. وتخضع ممارسة الطقوس إلى جملة من الشعائر والماراسم المعقدة ويجري كل طقس وفق سيناريوهات درامية متكررة تختلف باختلاف وضعيات التفاعل والانظمة الثقافية.

استناداً إلى ما تقدم فإن الطقوس أو الشعائر الحسينية هي مجموعة من الاعمال والممارسات التي يقوم بها اتباع أهل البيت استجابة لما دعا إليه رسول الله وأكد عليه الأئمة من بعده. فكل طقس يقوم به شيعة أهل البيت أو يقومون به إنما مرجعه سنة رسول الله وهو خاضع للضوابط الشرعية المستقاة من كتاب الله وسنة نبيه ولقد أكد الأئمة على كون هذه الشعائر والطقوس خاضعة للموازين والقيم الدينية لكونها ترتبط بشعار من أهم الشعارات الإسلامية ألا وهي الإمامة.

وعلى هذا الأساس كانت طقوس الحداد على الحسين كل عام رمزاً ثورياً اتخذها المجتمع الشعبي الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لا يمكن مواجهتها بصورة طبيعية أو التغلب عليها إلا من خلال ممارسة هذه الطقوس فضلاً عن ذلك فإن طقوس الحداد الشيعية تعد نوعاً من الثقافة الشيعية التي تسعى إلى توظيف الالم سياسياً ويتجسد طقس الحداد في زيارة الأربعين في رحلة مليونية يقطعها الموالون من كل بقاع الأرض وكما هو معروف أن زيارة القبور تعد من الممارسات المستحبة عند المسلمون لاسيما زيارة قبر الرسول والصالحين^{١٧}.

ونكون في هذا النمط من التدين بصدد الدين كما يعاش وكما يمارسه الناس في حياتهم اليومية بما يتعارفون عليه خلال هذه الممارسات من رؤى وتصورات واعراف وتقاليدها بالدين وهي ليست منه إنه تدين يصدر عن الظروف الحياتية التي يوجد فيها الأفراد والجماعات وبتعبير "فرنكون" بصدد الدين ليس كنظام معياري وكما هو موجود في الكتب والأسفار المقدسة ونصوصها وتأويلاتها وشروحها وإنما نكون بصدد الدين التاريخي الاجتماعي المتضمن في ثقافة المجتمع والذي يتخلل كل بنياته ولقد ثبت بالمعينة والمشاهدة أن الناس يؤسسون بالفعل وفي سياقات تاريخية بنائية أديانهم الشعبية وهي أديان تختلف بالضرورة باختلاف المجتمعات ومستوى

تطورها ومن ثم كان طبيعياً أن نجد ظواهر إسلامية شعبية في العراق، لا نجد نظيرها في أي مجتمع مسلم آخر كإندونيسيا أو مصر مثلاً والعكس صحيح بالطبع وعلى هذا النحو تختلف المجتمعات الإسلامية المعاصرة في أديانها الشعبية بل إننا نجد داخل المجتمع الواحد طبقات محلية للإسلام تؤثر في الناس وتسير حياتهم جنباً إلى جنب؛ الدين الشعبي إذن هو الدين كما يُمارسه عموم المصريين في حياتهم اليومية وحيث نجح المصريون وباقتدار في صهر أديانهم بثقافتهم اليومية إلى الحد الذي يدفع إلى تقرير أن الاثنين قد صاروا شيئاً واحداً يصعب أحياناً التمييز بينهما^(١٨).

ثانياً : زيارة الاربعين مضمونها وابعادها الاجتماعية والسلوكية :

تندرج زيارة الاربعين ضمن إطار ممارسات الدين الشعبي في العراق، إذ يتوافد على مدينة كربلاء في العراق في العشرين من شهر صفر، ملايين من الشيعة ومختلف المذاهب القادمين من مدن عراقية أخرى ومن خارج البلاد لإحياء ذكرى اربعينية الامام الحسين عليه السلام حيث اولى الائمة المعصومين زيارة قبر الامام الحسين عليه السلام عناية فائقة واهتمام خاص وحثو شيعتهم على اداء هذه الشعيرة المقدسة والتأكيد عليها وفي ذلك قال الامام الكاظم "من زار الحسين عارفا بحقه غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر".

إذ جاء في التاريخ أن اول من زار الامام الحسين عليه السلام في كربلاء "جابر بن عبد الله الانصاري" صاحب النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم وبعد ذلك حضر الامام زين العابدين وعمته السيدة زينب الكبرى عليها السلام اخت الامام الحسين عليه السلام وبقية النساء بعد اربعين يوماً من استشهاد الامام الحسين بعد واقعة الطف التي كان رائدها الامام الحسين عليه السلام واهل بيته وصحبه الذين جسدوا بافعالهم قبل الواقعة وبعدها وفي اثنائها كل القيم التي يدعو اليها الاسلام من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية ونجد أن الطرف الآخر قد مثل المنهج المخالف للشرعية الاسلامية ومبادئها الانسانية بارتكابهم ابشع الجرائم والانتهاكات التي جرت بحق الامام الحسين عليه السلام واهل بيته وصحبه من قتل بأساليب وحشية والتمثيل بجثث القتلى وقطع الرؤوس وقتل الاطفال والهجوم على المخيمات وسلبها وحرقها ومنع الماء عن مخيم الامام الحسين عليه السلام قبل الواقعة بثلاثة ايام وغيرها من الافعال اللاإنسانية^{١٩}.

وتعد زيارة الاربعين من اهم الزيارات المخصوصة التي ورد في شأنها روايات كثيرة من الائمة المعصومين في خصوصية يوم الاربعين وفضل زيارة الحسين في ذلك اليوم وأن الله سبحانه وتعالى عوض الحسين عليه السلام عن شهادته وتضحيته (بأن كان الشفاء في تربته وجعل الائمة من ذريته واستجابة الدعاء عند قبته) وأن الله تعالى ينظر إلى زوار قبر الحسين عشية يوم عرفة قبل أن ينظر الى حجاج بيت الله الحرام وذلك لان الحسين عليه السلام حفظ حرمة البيت الحرام ، وجاء عن الامام الباقر عليه السلام : ان الحسين قتل مظلوماً فالى الله ان لا يأتي قبر الحسين مظلوم الا تكفل برد مظلمته وان الحسين قتل مهموماً حزينا كئيباً فالى

الله ان لا يأتي قبر الحسين مهموم الا فرج عن ، وروي ابن قولويه عن الامام محمد الباقر عليه السلام إنه قال (ان السماء بكت على الحسين اربعين صباحا)، وروي عن الامام الحسن العسكري عليه السلام في فضل زيارة الاربعين أنه قال (علامات المؤمن خمس الجهر بسم الله الرحمن الرحيم وصلاة احدى وخمسين زيارة الاربعين والتختم باليمين وتغفير الجبين)، فليس على الارض ما يشبه ملايين السائرين مشياً على الاقدام مصطحبين معهم الاطفال والشيوخ والنساء والمرضى وذوي الاحتياجات الخاصة مسافة تتجاوز ٦٠٠ كم لا يبالون بحرارة الشمس وعواصف الغبار و تساقط الامطار ولا يأبهون بسيارات الارهابيين المفخخة وعبواتهم الغادرة ولا بالابوئة وانتشار جائحة كورونا وهو تعبير صادق عن عمق ارتباط هذه الحشود المليونية بالامام الحسين عليه السلام^{٢٠}. وتعود احداث مقتل الحسين إلى واقعة الطف (عاشوراء) وهي ملحمة وقعت سنة ٦١ للهجرة في كربلاء المقدسة بين الجيش الاموي والحسين بن علي عليه السلام مع قلة من ناصريه وذلك بعد رفضه لبيعة يزيد بن معاوية بن ابي سفيان وجيشه الكبير الذي شارك بالتحطيط والتدمير والتنفيذ للانتهاكات، وجدير بالذكر إن واقعة الطف لم تكن وليدة عصرها بل كانت نتيجة مجموعة من الظروف التي طرأت على المجتمع الاسلامي بعد وفاة الرسول صل الله عليه وعلى اله والتي منها الخروج عما رسمه الدستور الاسلامي المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية من احكام الشرعية السلطة وما قامت به السلطة الاموية من ارباب دولة تمثل باشاعة خطاب الكراهية والغارات الارهابية على المدنيين الامنيين فضلا عن سياسة الاغتيال والقتل على الهوية وسياسة التمييز العنصري بين المسلمين^{٢١}.

وقد اخذت زيارة الاربعين في السنين الاخيرة زيادة ملحوظة حتى شكلت وقفة عالمية تمثل اكبر تجمع بشري في العالم وتحد من اجل هدف معين واكبر تجمع انساني عفوي واطول مسيرة في العالم اليوم وأن زائر الامام الحسين عليه السلام يحظى يوم القيامة بخصائص كثيرة منها كما ورد في رواية عن الامام الباقر عليه السلام، إذ قال "يؤمنه الله يوم الفرع الاكبر وتلقاه الملائكة بالبشارة ويقال له لا تخف ولا تحزن هذا يومك الذي فيه فوزك"^{٢٢}.

وفي هذا الصدد تعد الزيارة في الاسلام هي نحو من العمل العبادي الذي يؤديه المسلم ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى وطلب مرضاته والتقرب، اليه فعن ابي عبد الله عليه السلام "من أتى قبر الامام الحسين عليه السلام تشوقاً اليه كتبه الله من الامنيين يوم القيامة" ومن اهم مفردات الزيارة: السلام والدعاء والتوسل والصلاة وهو ما سنوضحه في الاتي:

أولاً : السلام: الذي هو نقيض الحرب وهو دعاء يخاطب به الامام عليه السلام كإقرار امامه وشهادة بين يديه يقال : "السلام عليك يا ابا عبدالله ، السلام عليك يا ابن رسول الله، لعن الله من قتلك"، فالسلام اعلان موقف، وقرار بأن الامام الحسين عليه السلام مستحق للسلام من الله ومن الانبياء والمرسلين والملائكة ومن

المؤمنين كما ورد في نص الزيارة "سلام الله وسلام ملائكته المقربين وانبيائه المرسلين، عليك يا مولاي وابن مولاي وابن موالي ورحمة الله وبركاته"، فإن الزائر يلقي السلام على الامام عليه السلام ليثبت هذا الايمان ويعلن هذا الاحترام بل انه بعد موته يكون ابلغ باعتباره الاخرة هي دار السلام .

ثانياً : الدعاء : هو سلاح المؤمن وعمود الدين ونور السماوات والارض وهو ان يبتهل الانسان الى الله بالسؤال رغبة فيما عنده من الخير فهو سلاح المؤمن لنيل رضا الله وقضاء حوائجه "وقال ربكم ادعوني استجب لكم " ويكون الدعاء افضل واسرع من حيث الاستجابة اذا كان في اماكن مخصوصة وقال سبحانه وتعالى "في بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ويسبح له فيها بالغدو والاصال " وموضع القبر الشريف بقعة طاهرة من طهر طاهر مطهر^{٢٣} .

وقد ورد عن ابي عبدالله عليه السلام "إن لموضع قبر الامام الحسين عليه السلام حرمة معلومة، من عرفها واستجار بها اجير وموضع قبره منذ يوم دفن روضة من رياض الجنة، ومنه معراج يعرج فيه باعمال زواره الى السماء، فليس ملك ولا نبي في السماوات . الا وهم يسألون الله أن يأذن لهم في زيارة قبر الامام الحسين عليه السلام ففوج ينزل وفوج يعرج .

ثالثاً : التوسل : ومن خصوصيات الزيارة أن يتخذ الامام عليه السلام وسيلة الى الله تعالى لاستجابة الدعاء كونه شفيع الامة كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى "يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة" .

رابعاً : الصلاة : هي أن يصلي الزائر في حرم الامام الحسين عليه السلام لله رب العالمين، اما الصلاة المفروضة واما الصلاة النافلة، باعتبار قبر الامام الحسين عليه السلام بيت من بيوت الله، حيث تتضاعف الحسنات وقد ورد عن جابر الجعفي انه قال : قال ابو عبدالله عليه السلام للمفضل - في حديث طويل - في زيارة قبر الامام الحسين عليه السلام : ثم تمضي إلى صلاتك ولك بكل ركعة ركعتها عنده كثواب من حج الف حجة واعتمر الف عمرة واعتق الف رقبة وكأنما وقف في سبيل الله الف مرة مع نبي مرسل"، وايضاً عن ابي عبدالله عليه السلام قال : "من صلى خلفه صلاة واحدة يريد بها الله لقي الله يوم يلقاه وعليه من النور ما يغشى له كل شيء يراه والله يكرم زواره ويمنع عنهم النار أن تتال منهم " ^{٢٤} .

وقد تجلت معطيات هذه الزيارة المليونية المباركة والمؤيدة إلهياً من خلال الآتي:

١- ثقافة الولاء والبراءة: وتُعد ثقافة الولاء والبراءة من أعظم ثقافات عاشوراء وكربلاء، وهي ثقافة أساسية في بناء الشخصية الشيعية فلا نجد في غير الإسلام ثقافة بمثل قوتها ومتانتها وإحكامها، وهذه الثقافة ماثلة في زيارات أهل البيت عامة وفي زيارات الإمام الحسين خاصة على أن هذه الثقافة ثقافة توحيدية

منحدرة عن أصل التوحيد، وتأتي في امتداده الطولي، وكل ولاء مشروع يأتي في امتداد الولاء له سبحانه.

و يمكن أن نقف على أبرز معطيات زيارة الأربعين على النحو الآتي:

أولاً: الولاء والبراءة: إذ تتقابل هاتان اللفظتان في أكثر زيارات الإمام الحسين -عليه السلام-، ومن ذلك زيارة الأربعين في قوله ((...، اللهم! إني أشهدك أني ولي لمن والاه وعدو لمن عاداه...))، وهو تقابل يفصح بشكل واضح وصريح عن ((موقف المؤمن في ساحة الصراع التي امتدت عبر العصور إلى اليوم -ولاء لآل رسول الله وبراءة وعداء لأعدائهم، وليس بعد هذا الوضوح وضوح)).^{٢٥}

ولعل مشاهد الولاء في زيارة الأربعين تتحدد في ثلاثة هي:

١- التسليم: ويمثل السلام والأمن والمحبة، والثقة المطلقة بالله، والموقف تجاه محور الولاية في قوله

((السلام علي ولي الله وحبيبه، السلام على خليل الله ونجييه، السلام على صفي الله وابن صفيه، السلام

على الحسين المظلوم الشهيد، السلام على أسير الكربات وقتيل العبرات)).

٢- الشهادة بأن الإمام الحسين هو ولي الله وابن وليه، وصفيه وابن صفيه، وأنه الفائز بالكرامة والسعادة

وطيب الولادة، وأنه سيد من السادة وقائد من القادة وذائد من الذادة، وأنه مُعطى مواريث الأنبياء

ومجعل حجة على الخلق في قوله ((اللهم! إني أشهد أنه وليك وابن وليك وصفيك وابن صفيك الفائز

بكرامتك أكرمته بالشهادة وحبوته بالسعادة واجتبيته بطيب الولادة وجعلته سيداً من السادة وقائداً من القادة

وذائداً من الذادة وأعطيته مواريث الأنبياء وجعلته حجة على خلقك من الأوصياء)).

٣- الموقف: في قوله ((وقلبي لقلبك سلم وأمرى لأمركم متبع ونصرتي لكم معدة حتى يأذن الله لكم، فمعكم

معكم لا مع عدوكم...)).

وضمن هذه المراحل الثلاث يعبر الزائر عن ولائه للإمام الحسين -عليه السلام- في المعركة الكبرى

التي وقف فيها سيد الشهداء في مواجهة الطاغية يزيد ينطلق فيها من جذور هذه المعركة التاريخية إلى يومنا

هذا.

وإذا كانت ممارسة البراءة من المشركين تمثل إحدى ممارسات الحج المهمة، لقوله تعالى "أذان من الله ورسوله

إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير

معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم" (التوبة/٣) فإن ممارسة زيارة الأربعين تمثل أكبر ظاهرة إسلامية

للتعبير عن البراءة من المشركين والظالمين، فنهضة الإمام الحسين -عليه السلام- إعلان رافض للشرك

والمشركين، وتحد واضح للظلم والظالمين، ويمكن تلمس مظاهر البراءة واللعن في ألفاظ زيارة الأربعين الواردة

عن الإمام الصادق -عليه السلام- في قوله: ((... اللهم! فالعنهم لعناً وبهلاً وعذبهم عذاباً أليماً، ... فلعن الله من قتلك ولعن الله من ظلمك ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به ...))^{٢٦}.

ولعن من لعن في الزيارة ثلاث أمم وطوائف هي :

- ١- الطائفة الأولى التي باشرت قتال الإمام الحسين -عليه السلام- في قوله ((... فلعن الله من قتلك)).
- ٢- والطائفة الثانية في قوله ((... ولعن الله من ظلمك)) التي ظلمت الإمام الحسين -عليه السلام- وجارت عليه، ومكنت منه فهي طائفة شملت كل أولئك الذين ظلموه وجاروا عليه بأية طريقة كانت.
- ٣- والطائفة الثالثة (الشريحة الراضية) في قوله ((... ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به ...))، وهي طائفة سمعت استتصار الإمام الحسين -عليه السلام- فأثرت العافية، ولم تنصره فهي طائفة سامعة لاستتصاره راضية بقتله لذا هي شريكة في قتله؛ لأنها رضيت بفعل يزيد في قتله للحسين -عليه السلام-^{٢٧}.

وتعد ثقافة الولاء والبراءة من أعظم ثقافات عاشوراء و كربلاء، وهي ثقافة أساسية في بناء الشخصية الإسلامية فلا نجد في غير الإسلام ثقافة بمثل قوتها ومتانتها وإحكامها، وهذه الثقافة مبنية في زيارات أهل البيت -عليهم السلام- عامة وفي زيارات الإمام الحسين -عليه السلام- خاصة على أن هذه الثقافة هي ثقافة توحيدية منحدره عن أصل التوحيد، وتأتي في امتداده الطولي، وكل ولاء مشروع يأتي في امتداد الولاء له سبحانه. قال تعالى "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون" (المائدة/٥٥) على أن كل المقولات الثقافية الداخلة في الولاء والبراءة من مقولة التوحيد فهي جميعاً لله تعالى فالحب مثلاً من مقولات الولاء، ولا ولاء من دون الحب، ولكن لا يكون مشروعاً مقبولاً إلا إذا كان لله وفي الله، فضلاً عن ذلك إن للولاء وجهاً آخر لا يفارقه قط، وهو البراءة فأيما تحقق الولاء تحققت البراءة بإزائه: البراءة من أعداء الله وأعداء رسوله وأوليائه، وهما وجهان لقضية واحدة، والولاء الذي لا يقترن بالبراءة لعمرى هو الولاء الساذج السطحي غير المقاوم^{٢٨}.

إن ثقافة الولاء والبراءة تعمق ارتباط الإنسان بالله تعالى وأنبيائه ورسوله وأوصيائه، ومن ذلك تعميق ثقافتنا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأهل بيته -عليهم السلام-، وبقدر ما يتم في نفوس المؤمنين تعميق الولاء في هذه الزيارات، يتعمق بالمقابل النفور والكراهية والعداء للظالمين والجبابرة والطغاة، والبراءة منهم ومقاطعتهم والتشهير بهم، والتمرد عليهم^{٢٩}.

ويعد طقس المشي علامة بارزة في طقوس الأربعين وهي على خطى الرحلة الحسينية التي بدأت حين رفض الامام الحسين عليه السلام البيعة ليزيد بن معاوية ثائراً على الخلافة الفاسدة الغاضبة فرحل عن المدينة الى مكة ومن ثم رحل الى العراق وهذه الرحلة الجهادية حملت في طياتها الكثير من المعاني والقيم السامية على

الاصعدة كافة، تمثلت بقول الامام الحسين عليه السلام "اني لم اخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وانما خرجت اطلب الاصلاح في امة جدي محمد صلى الله عليه واله وسلم اريد أن آمر بالمعروف وانهي عن المنكر واسير بسيرة جدي محمد وسيرة ابي علي ابن ابي طالب ؛ إن زيارة مرقد الامام الحسين في كربلاء هو جزء من رحلة مقدسة يرغب الزائر بممارستها بمعزل عن الاستعانة بالوسائل التقليدية في التنقل لأن المشي يتيح للسائرين استثمار عنصر الحركة الجسدية في الحصول على التطهير الروحي ونبذ الشهوات والرغبات الجامحة^{٣٠}.

ثانياً : الابعاد الاجتماعية والسلوكية لزيارة الاربعين:

تعد زيارة الاربعين مناسبة دينية هامة في الاسلام اذ يتوجه المسلمون إلى مدينة كربلاء في العراق لزيارة ضريح الامام الحسين وأخيه ابا الفضل العباس عليهما السلام والشهداء الذين استشهدوا في معركة الطف وتحمل زيارة الاربعين ابعادا اجتماعية وسلوكية مهمة تؤثر على المجتمع بشكل عام فقد كانت زيارة الاربعين من اهم اساليب الائمة في الحفاظ على نهضة عاشوراء وشخصياتها واسماء شهداء كربلاء .

وتعد زيارة الاربعين من اهم العوامل المؤثرة في التبادل الثقافي والفكري من أجل زيادة العناصر البناءة في الحياة الاجتماعية والثقافية واحياء الثقافة الاسلامية الاصيلية في مجالات الحياة أن من جملة الابعاد النفسية للمناسك الدينية هو حصول السكينة وابداء النشاط والفعالية والاطمئنان والثقة بالنفس فضلا عن أن المناسك الدينية الاصيلية يمكنها أن تكون مؤثرة في تحكيم بعض الاخلاقيات الحسنة كمساعدة المحتاجين وخلق الضمير العملي والارتباط الاسري والعفة والطهارة ونتيجة ذلك فإن تقوية الايمان وتكامل الشخصية وتحسين السلوك والعبور من الماديات إلى المعنويات والرغبة في الاحسان واحترام الآخرين والصفح والعفو وحصول السعادة ورضا الله تعالى والغاء الامتيازات وزيادة التعاون والمواساة وتقوية اساس قبول المجتمع للثقافة والانسجام الاجتماعي بين الامم والاديان والمذاهب^{٣١} .

إنه حسب ذلك فإن زيارة الاربعين والمسيرة الزينية انما هي بمنزلة تجديد العهد مع سيد الشهداء واصحابه من خلال رفع راية "لبيك يا حسين" وهي تؤدي للحفاظ على نهضة عاشوراء ونقل ندائها إلى عامة الضمائر الانسانية الحية فتعد مراسم الاربعين نموذج للتخلص من الانشداد إلى العلائق الدنيوية وتمرين للايثار وسائر الاصول الاخلاقية والفطرية ؛ إن مراسم الاربعين هي جامعة ثقافية تضم في داخلها ثقافات متنوعة يحملها افراد مختلفون في الثقافة واللغة وتجمعها راية واحدة عنوانها الفطرة والقيم الالهية^{٣٢} .

كما أن لزيارة الاربعين دوراً مهماً في تفعيل البعد الاجتماعي واستتباب الامن النفسي وتبني ثقافة الحوار بين جميع شرائح المجتمع ومن شأنها أن تعالج الازمات الاخلاقية المعاصرة ومن الابعاد الاخلاقية لزيارة الاربعين هي المسؤولية الشخصية وهي شعور مركب بين الثقة بالنفس والاعتماد عليها والتحمل والصبر والمثابرة اثناء زيارة الاربعين .

واثبتت الدراسات تأثير زيارة الاربعين الوجداني باعتباره اشد فاعلية في تغيير السلوك من خلال تصحيح افكار الفرد والتخلص من العادات السلوكية المضطربة مثل تغيير سلوك العزلة الى القبول الاجتماعي من خلال بناء علاقات طيبة مع الآخرين وتغيير سلوك البخل الى العطاء ؛ إن هذه الزيارة تخلق عند الفرد الزائر حالة عالية من الضبط النفسي الداخلي وتحمل المسؤولية والانسجام مع الآخر كما تخلق شعوراً عالياً بانتماء الفرد إلى الجماعة والجماعة للفرد فضلاً عن حالة فريدة من العطاء والتسامي والايثار والخدمة للآخر وحالة عالية من التواصل الاجتماعي والحضاري الداخلي والخارجي^{٣٣}.

يتضح أن زيارة الاربعين لها اهمية كبيرة كحدث ثقافي وديني يجمع بين الجوانب الاجتماعية والثقافية يمكن أن تسهم هذه الزيارة في فهم اعمق لتركيبية المجتمع وتأثيرها على الهوية الجماعية والثقافية . وهذه الرحلة الجهادية حملت في طياتها الكثير من المعاني والقيم السامية على الاصعدة كافة ، تمثلت بقول الامام الحسين عليه السلام "اني لم اخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً ، وانما خرجت اطلب الاصلاح في امة جدي محمد صلى الله عليه وسلم اريد أن أمر بالمعروف وانهي عن المنكر واسير بسيرة جدي محمد وسيرة ابي علي ابن ابي طالب وسيرة الخلفاء الراشدين .

إن زيارة مرقد الامام الحسين في كربلاء هو جزء من رحلة مقدسة يرغب الزائر بممارستها بمعزل عن الاستعانة بالوسائل التقليدية في التنقل لأن المشي يتيح للمارسين استثمار عنصر الحركة الجسدية في الحصول على التطهير الروحي ونبذ الشهوات والرغبات الجامحة.

إنه وفق ما سبق وترتيباً على المعطيات السابقة نستطيع أن نضع ايدينا على اهم الابعاد الاجتماعية والثقافية التي تتركها زيارة الاربعين لعل اهمها تنمية التفاعلات الاجتماعية مع الآخر الشريك في المجتمع بالاضافة إلى تعميق الهوية الدينية والخصوصية الثقافية في المجتمع العراقي وتنمية رأس المال الرمزي والثقافي من خلال دراسة الرموز والتقاليد التي تحيط بالزيارة وتفاعل المشاركين خلال الزيارة وتبادل التجارب والقصص وبناء العلاقات الجديدة وتأثيرها على القيم والمعتقدات الثقافية وتشجيع السياحة الدينية والتشجيع على السلوكيات الايجابية مثل التسامح والمحبة والاخلاص والتآخي حتى بعد انتهاء الزيارة .

الدراسة الميدانية

الاجراءات المنهجية للدراسة :

على الرغم من أن المنهج العلمي واحد في كل العلوم الاجتماعية والطبيعية من حيث طبيعته واسسه وخطواته وغاياته، فإن هناك اختلافاً بين العلوم المختلفة في الممارسات وهو ما يرجع إلى تباين الاساليب والطرق البحثية المختلفة التي تستخدمها العلوم المختلفة لتحقيق الاهداف التي تسعى اليها^{٣٤}. والمنهج العلمي

بكل خطواته يساهم في اعداد البحث باعتباره مشروعاً اجتماعياً وهو يعد اسلوباً للتفكير والعمل يعتمد على الباحث لتنظيم افكاره وتحليلها وعرضها وبالتالي الوصول إلى النتائج^{٣٥}.

وإذا كان ذلك في إطار مسعى هذه الدراسة فإن ثمة أساليب وطرقاً وأدوات بحثية تطرح نفسها. ولعل ما يسمى بمنهج دراسة الحالة يعد من أفضل المناهج التي تفيد في رصد الوقائع الكيفية عن موضوعات البحث إذ عُرِف استخدام دراسة الحالة منذ آحاد بعيدة لوصف وتفسير الحياة الاجتماعية في أي زمان ومكان. وهي تقوم على اساس التعمق في دراسة جميع المراحل التي مرت بها الحالة وذلك بقصد الوصول الى تعميمات علمية متعلقة بالوحدة المدروسة وبغيرها من الوحدات المتشابهة^{٣٦}، إنه وفقاً لذلك فإننا نقترح تناول الظاهرة الحالية موضوع البحث من خلال منهج دراسة الحالة لعينة من افراد المجتمع العراقي الذين يؤدون بشكل مستمر على زيارة الاربعين ومحاولة تنوع الحالات المدروسة باختلاف المجتمع المحلي حتى يتسنى لنا معرفة اكبر قدر من العادات التي يتعامل بها الافراد مع ظاهرة زيارة الاربعين في محاولة لوضع إطار ثقافي للظاهرة في المجتمع العراقي ككل.

أدوات جمع البيانات :

- أ. **اداة الملاحظة :** تعتبر الملاحظة بالمشاركة من الوسائل الاساسية في البحث الميداني وهي تعني مشاركة المبحوثين حياتهم اليومية بعد ان يتمكن الباحث من كسب ثقتهم والاندماج معهم بذلك يستطيع الباحث ان يجمع المعطيات عبر ملاحظة الممارسات بشكل مباشر^{٣٧}، وهو ما ستقوم بتفعيله الباحثة على زيارة الاربعين ودينامياتها المجتمعية.
- ب. **المقابلة المتعمقة :** استخدمت الباحثة تلك الاداة من خلال دليل المقابلة - كأداة لمنهج دراسة الحال - المعد لمقابلة عينة من الافراد الذين يترددون على زيارة الاربعين، وقد اشتمل هذا الدليل على مجموعة الاسئلة التي تخدم اهداف الدراسة.
- دليل المقابلة المتعمقة :** وقد اشتمل هذا الدليل على مجموعة من التساؤلات التي تفيد الباحثة في تحقيق اهداف الدراسة والاجابة على تساؤلاتها (انظر ملحقات الدراسة)
- مجالات الدراسة :**

في إطار موضوع الدراسة نجد أن ثمة مجموعة من الاجراءات المنهجية التي تستعين بها الباحثة لانجاز موضوع البحث وهي :

- أ. **المجال المكاني :** لما كانت الباحثة تهتم بفهم ديناميات زيارة الاربعين من منظور انثروبولوجي، فإن ثمة فضاءات اجتماعية تفرض نفسها للدراسة ها هنا فتم تطبيق الدراسة في العراق على عينة من الافراد الذين اعتادوا المشاركة في طقس زيارة الاربعين وبالاخص في مدينة

ب. المجال الزمني : تضمن المجال الزمني للدراسة مرحلتين : مرحلة الاعداد النظري : وقد شملت الاطلاع على الادبيات النظرية الخاصة بموضوع الدراسة واستغرقت المدة بداية شهر نيسان إلى منتصف الشهر ذاته، مرحلة الدراسة الميدانية : فقد قامت الباحثة خلالها بتطبيق دراستها الميدانية على مجموعة من الافراد الذين يؤدون زيارةالخ على زيارة الاربعين في المدة من منتصف انيسان ٢٠٢٤ إلى ايار ٢٠٢٤

ت. المجال البشري : في إطار موضوع الدراسة فإن الباحثة قامت بتطبيق دراستها على عدد من الحالات ممثلة لمجموعة من الافراد الذين اعتادوا المشاركة في زيارة الاربعين في كربلاء وعددهم ١٢ حالة .

الهوامش:

- ^١ شحاتة صيام : طغيان الدين في المجال العمومي ، مركز دال للابحاث الاجتماعية، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٢ .
- ^٢ سراج جيلالي : زيارة الاضرحة واثرها في المعتقدات ، رسالة ماجستير ، جامعة ابي بكر بلقايد، كلية الاداب والعلوم الانسانية، الجزائر، ٢٠١٥، ص ١٦ .
- ^٤ ايناس شريم : دور الزيارة الاربعينية في تنمية فكر الشباب وتربيتهم دينيًا ، العتبة الحسينية المقدسة ، مركز كربلاء للبحوث والدراسات ، مج ٧، ع ٢٤، ٢٠٢١، ص ١٤٤ .
- ^٥ وفاء كاظم : الابعاد الاجتماعية والاخلاقية لزيارة الاربعين، العتبة الحسينية، مركز كربلاء للبحوث، العراق ، مج ٥، ع ٢٤، ايلول ٢٠١٩، ص ٤٩١
- ^٦ هادي حسن شويخ : مستقبل زيارة الاربعين في ظل التحديات والتهديدات والفرص ، العتبة الحسينية المقدسة ، مركز كربلاء للدراسات والبحوث ، مج ٥ ، ع ٢٤، ايلول ٢٠١٩، ص ٤٩١ .
- ^٧ محمد المرجان : الدين الشعبي والدين العالمي : المواجهة واعادة التأويل ، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية واستراتيجيات التواصل ، ع ٤٩، ٢٠٢٢، ص ٤٠ .
- ^٨ ميشال فوكو : حفریات المعرفة ، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٨٧، ط ٢، ص ٧ .
- ^٩ بن منظور : لسان العرب ، دار صادر، بيروت ، ١٤١٤هـ
- ^{١٠} نورس ابراهيم عبدالهادي: طقوس الحداد في زيارة الاربعين (المفهوم والوظائف) مقارنة انثروبولوجية، المؤتمر الدولي الثاني لزيارة الاربعين، ع ٢، ج ١، جامعة كربلاء ، العراق، ٢٠١٩، ص ٦٣ .
- ^{١١} جوردون مارشال : موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري واحمد زايد، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٤٢٩ .
- ^{١٢} شحاتة صيام: الطهر والكرامات (قداسة الأولياء) ، دار روافد للنشر والتوزيع ، القاهرة، ٢٠١١، ص ١٢٠ .
- ^{١٣} السيد الأسود: الدين والتصور الشعبي للكون (سيناريو الظاهر والباطن في المجتمع القروي المصري) ،المركز القومي للترجمة ، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٤ .
- ^{١٤} فوشان عبدالقادر: الدين والاندماج الاجتماعي عند الشباب ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١١، ص ٣٠ .

- ١٥ محمد حافظ دياب: الدين الشعبي الذاكرة والمعيش، المعهد الأعلى لأصول الدين، تونس، نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٧٥ .
- ١٦ شحاتة صيام : الدين الشعبي في مصر (نقد العقل المتحایل) ، دار ميريت ، القاهرة ، ٢٠١٤ ، ص ١٥١ .
- ١٧ نورس ابراهيم عبدالهادي: طقوس الحداد في زيارة الاربعين (المفهوم والوظائف) مقارنة انثروبولوجية، مرجع سابق، ص ١٨٩ .
- ١٨ عبدالله شلبي : التدين الشعبي لفقراء الحضر (آليات المصالحة والقبول والرضا والتحايل)، مركز المحروسة للنشر، القاهرة ، ٢٠٠٨، ص ٤٠ .
- ١٩ اشواق عبدالرسول : الاطار التأصيلي لزيارة الاربعين ، العتبة الحسينية المقدسة ، مركز كربلاء للدراسات والبحوث ، مج ٨، ع ٤، ايلول ٢٠٢٢ .
- ٢٠ اشواق عبدالرسول : الاطار التأصيلي لزيارة الاربعين ، العتبة الحسينية المقدسة ، مركز كربلاء للدراسات والبحوث ، مج ٨، ع ٤، ايلول ٢٠٢٢ ص ٤٥ .
- ٢١ شمس الله مريحي : تبين الزيارة الاربعين واثارها الاجتماعية من منظور علم الاجتماع ، مجلة السببط، مج ٨، ع ٤، العتبة الحسينية المقدسة، مركز كربلاء للبحوث والنشر، ايلول ٢٠٢٢، ص ١٢١ .
- ٢٢ اشواق عبدالرسول : الاطار التأصيلي لزيارة الاربعين ، مرجع سابق، ص ٥٦ .
- ٢٣ دينا فؤاد جواد : الابعاد العقائدية في زيارة الاربعين وعلاقتها بالحشد الشعبي، السببط، ج ٢، ع ٢ ، العتبة الحسينية المقدسة ، مركز كربلاء للبحوث والنشر، ايلول ٢٠١٩ ، ص ٤٦٣ .
- ٢٤ ايناس شريم : دور الزيارة الاربعينية في تنمية فكر الشباب وتربيتهم دينيًا ، العتبة الحسينية المقدسة ، مركز كربلاء للبحوث والدراسات ، مج ٧، ع ٢، ٢٠٢١ ،
- ٢٥ خليل خلف بشير العامري: المعطيات الدينية والاجتماعية لزيارة الأربعين، السببط، مج ٥، ع ٢، العتبة الحسينية المقدسة ، مركز كربلاء للبحوث والنشر، ايلول ٢٠١٩ ، ص ٣٢ .
- ٢٦ وليد عبد جبر: الابعاد الفكرية والعقائدية لثقافة الاربعين ، السببط، مج ٥، ع ٢، العتبة الحسينية المقدسة، مركز كربلاء للبحوث والنشر، ايلول ٢٠١٩، ص ٦٣ .
- ٢٧ خليل خلف بشير العامري: المعطيات الدينية والاجتماعية لزيارة الأربعين، مرجع سابق ، ص ٣٤ .
- ٢٨ نورس ابراهيم عبدالهادي: طقوس الحداد في زيارة الاربعين (المفهوم والوظائف) مقارنة انثروبولوجية، مرجع سابق ، ص ١٩٤ .
- ٢٩ خليل خلف بشير العامري: المعطيات الدينية والاجتماعية لزيارة الأربعين، مرجع سابق ، ص ٣٥ .
- ٣٠ محمد المرجان : الدين الشعبي والدين العالمي : المواجهة واعادة التأويل ، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية واستراتيجيات التواصل ، ع ٤٩، ٢٠٢٢ .
- ٣١ محمد جواد اسكندرلو : اهمية زيارة الامام الحسين عليه السلام في الاربعين واثارها وبركاتها المعنوية والاجتماعية ، العتبة الحسينية المقدسة ، مركز كربلاء للدراسات والبحوث ، مج ٨، ع ٤، ايلول ٢٠٢٢ ، ص ٨٣ .
- ٣٢ المرجع نفسه، ص ٨٨ .
- ٣٣ وفاء كاظم : الابعاد الاجتماعية والاخلاقية لزيارة الاربعين ، السببط، مج ٥، ع ٢، العتبة الحسينية المقدسة، مركز كربلاء للبحوث والنشر، ايلول ٢٠١٩ ، ص ٢٧٠ .
- ٣٤ ياسر الخواجه : البحث الاجتماعي اسس منهجية وتطبيقات عملية ، دار المصطفى للطباعة والنشر، طنطا ، ٢٠٠١، ص ٩٩ .

٣٥ ربحي مصطفى : مناهج واساليب البحث العلمي (النظرية والتطبيق ، عمان ، دار صفاء للطباعة والنشر ، ٢٠٠٠، ط٢، ص ٣٣ .

٣٦ عبدالله شلبي : التدين الشعبي لفقراء الحضر ، المحروسة للنشر والتوزيع ، مصر، ٢٠٠٨، ص ص ٣٢-٣٣

٣٧ ثابت الحبيب : استخدام منهجية الملاحظة بالمشاركة لتطوير ادوات العمل ، مجلة الحكمة ، ع٤، بغداد، ٢٠١٠ ، ص ٢٣ .